الرواية الشفوية وأثرها في نقل التراث العربي

د/ بن نعمية عبد الغفار، جامعة وهران

تعتبر المعرفة العربية والإسلامية من أغنى أنواع المعارف العالمية ثراء، ومن أشرفها نمطا، وأكثرها تنوعا، اعتمدت في جزء مهم منها على الكتابة والتدوين كوسيلة للتبيين في الكتب، ونقل المعرفة عبر الزمان والمكان، وكانت الرواية الشفوية إحدى أشرف وسائلها، وعامل مهم في ربط الماضي بالحاضر، وربط هذا الأخير بالمستقبل.

ربما تجتمع مختلف الشعوب في نقل المعرفة عبر الرواية الشفوية، لكن التميز صاحبها حين ارتبطت بالمعرفة والتراث العربيين والإسلاميين، ونعتقد بجزم أن وصول هذه المعارف بطريقة أو بأخرى تعكس قيمة الجيل المسؤول، فرغم اشتراك الشعوب في مقوم شفوية المعرفة إلا أنها في التراث العربي كانت أكثر دقة، لارتباطها في جانب واضح بالعقيدة الإسلامية.

إن الحديث عن نظرية الرواية الشفوية ظهرت في السبعينيات حين رُبطت بالشعر الجاهلي، وهي نظرية تهدف إلى إخضاع الشعر الجاهلي إلى معطيات البحث العلمي، ودراسة ما يقدمه من نتائج، إذ أم يحفظ التاريخ شيئا غيره يمكن الحديث عنه في القبائل الجاهلية، وهو الذاكرة الأولى التي كفت عن العقلية العربية قبل الإسلام.

تجنح بعض الكتابات إلى استغراب وتحليل جذور هذه النظرية بإرجاعها إلى أعمال المستشرقين الذين جعلوا التاريخ العربي الجاهلي على المحك، وحديث بعضهم عن الشعر الجاهلي لم يكن موضوعيا بالقدر الذي يكفي لإثباته، بل عمل على نسف فترة زمنية معتبرة تحاكي تاريخ المجتمع الذي كانت أغلب يومياته تعتمد على الشعر كمادة أساسية في التعامل اليومي، مثّلت كلماته وقوافيه وأوزانه في ما بعد امتحانا صعبا للفكر العربي، بسبب البحث عن دليل ثبوته، فالحاضر الثابت هو روايات شفوية مجتمعة أحيانا ومتفرقة أحيانا أخرى تشهد على واقع عربي فريد قبل الإسلام وبعده، ربما دفعت الرواية الشفوية لهذا التراث أقطاب الفكر العربي كمحمود شاكر في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية إلى اعتبار دراسة هذا الشعر محنة حقيقية للعقل الحديث في العالم الإسلامي لم يسلم منها إلا القليل، وكل ذلك كان على يد أمضى الأسلحة في تهديم جوانب الثقافة وهو سلاح الاستشراق.

كثيرا ما أشارت الدراسات الأدبية حول أعمال الاستشراق إلى خطورة قصدها ونيتها رغم كثرتها وأهميتها، وقد عبر مالك بن نبي عن هذه الأهمية في قوله:"إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها"، ومثل هذه العبارات كانت دافعا مهما أمام اجتهادات علمية راقية في استجلاء واستخراج مكامن هذا الإشعاع.

وعليه فإن الرواية الشفوية كغيرها من القضايا والمسائل الأدبية الخطيرة والمهمة في آن واحد قد تناولها المستشرقون بالدراسة والبيان والتحليل، ولأن أعمال الاستشراق كانت المدخل الأساس في تنامي المعرفة الأدبية النقدية التي أتت على كل حقول المعرفة الاستشراقية بالبيان والتوضيح، فقد بينت هذه الدراسات أن الرواية الشفوية كانت معروفة عند المستشرقين الأوائل خاصة وليم ألواردت الذي كان يشير إلى التشابه بين الشعرين الهومري والجاهلي" [1]

تعريف الرواية الشفوية: تعتبر الرواية الشفوية أهم الوسائل التي ساعدت العرب على حفظ تراثهم الأدبي واللغوي، ضمنت هذه الوسيلة إلى حد بعيد وصوله إلى الأجيال المتعاقبة، تعدى مدلولها من مجرد الحفظ إلى السماع والاستظهار والنقل لمختلف مدونات العرب كالشعر والأنساب والأخبار، وتسجيل الوقائع التي كان الرواة يحرصون على تلقينها لمن يصغرهم، أو لأبنائهم، أو لمن يقوم بهذه المهمة في الأعصر التالية، وعليه فإن مسألة التواتر أهم ما تبني عليه الرواية الشفوية، تظهر أهميتها حين الوقوف على قصور عملية النقل إذ الاعتماد عليه مفردا لا يمنع في كثير من الأحيان التصحيف، وهي مسألة أشار إليها ابن خلدون في مقدمته حال حديثه عن علم التاريخ قائلا:" الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرّد النّقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السّياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنسانيّ ولا قيس الغائب منها بالشّاهد والحاضر بالذّاهب فربّما لم يؤمن فيها من العثور ومزلّة القدم والحيد عن جادّة الصّدق وكثيرا ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين ومن أئمّة النّقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرّد النّقل غثّا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النّظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط". [2]

فابن خلدون يجعل مسألة الرواية الشفوية لا تتعلق بالشعر الجاهلي فحسب بل بكل تراث العربي والإسلامي على حد سواء، ولأنها أساس وصول التراث العربي، فقد دفعت بأرباب اللغة والأدب إلى تأسيس قواعد البحث عن مصدر الرواية، وأسانيدها، ومتنها،وأصبحت في ما بعد هاجسا علميا عند المصنفين، فلا تخلو مقدماهم من الحديث عن مصادر الأخبار الواردة في الكتاب، في إشارة واضحة إلى استبعاد التجني أو الزيادة، كما هو الشأن في المصنفات الإسلامية في علوم الحديث فجعلت منه علم الجرح والتعديل في الرجال والرواة بناء على مقومات التوثيق والتضعيف، كمسلك واضح في النقد، وقسمت التفسير إلى دراية ورواية، وهذا المنهج في رجال الحديث كان دافعا لفحص رواة اللغة والأدب منذ القرن الثاني للهجرة، وكاشفا عن كذب حماد وابن الكلبي وجناد فرُفضت روايتهم، وفاضحا لوضع خلف الأحمر للأشعار، وكذبه في روايته، ومشيدا بثقة العدول من الرواة، كالمفضل الضبي، وابن الأعرابي، والأصمعي وغيرهم.

سبقت الإشارة أن المستشرقين تناولوا الحديث عن الرواية الشفوية من جهة كونها عاملا مشتركا بين الشعرين العربي الجاهلي والهومري، وبصفة أساسية بين امرؤ القيس وهومر، وأساس الاشتراك يكمن في التواتر الشفوي الذي أصبح مدخلا للشك في الشعر الجاهلي عند طه حسين ومن نحى منحاه، وقد شكلت هذه القضية محنة حقيقية في الفكر والعقل العربيين، حتى أطلق عليها " محنة الشعر الجاهلي"، إن القراءات المتعددة للتراث الأدبي للعرب تدل في عمقها على قيمته، لكن اهتمام المستشرقين كان قائما على نسف الفكرة الإسلامية أساسا، فالقول بالانتحال ورفض القول برواية الشعر شفاها وانتقاله توترا بين الأجيال والعمل على تعميق القول

بصياغته في الفترة الإسلامية ليس لع دلالة غير الطعن في الثوابت العربية، وأهمها القضاء على شخصية الرجل العربي وعلى استقلاليته وقدرته على العطاء، وهذه النظرة القاصرة لم تفرق بين الثابت والمنتحل من شعر الجاهلية، ومن أهم القراءات التي تناولت هذه القضية كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الذي أرجع أساس المشكلة إلى تزيد القبائل في أشعارها، ثم إلى حركة الوضع في الشعر، فيقول:" فَلَمَّا راجعت الْعَرَب رِوَايَة الشّعْر وَذكر أَيَّامهَا ومآثرها اسْتَقل بعض العشائر شعر شعرائهم وَمَا ذهب من ذكر وقائعهم وَكَانَ قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أَن يلْحقُوا بمن لَهُ الوقائع والأشعار فَقَالُوا على أَلْسِنَة شعرائهم ثمَّ كَانَت الروَاة بعد فزادوا في الْأَشْعَار الَّتِى قيلت وَلَيْسَ يشكل على أهل الْعلم زِيَادَة الروَاة وَلَا مَا وضعُوا وَلَا مَا وضع المولدون وَإِنَّمَا عضل بهم أَن يَقُول الرجل من أهل الْبَادِيَة من ولد الشُّعَرَاء أَو الرجل لَيْسَ من ولدهم فيشكل ذَلِك بعض الْإِشْكَال".[٣٣]

الشعر الجاهلي والمشكلة الهومرية: يظهر إذا أن الرواية الشفوية عامل رئيسي في تناقل مختلف العلوم والمعارف، حازت في الدراسات المختصة جانبا وافرا من الاهتمام، وارتبط الحديث عنها في باب التراث الأدبي واللغوي لما روج له المستشرقون إزاء الشك في الشعر الجاهلي، وتشبيهه بالشعر الهومري أو ما يسمى بالمشكلة الهومرية التي ألقت بظلالها على الفكر العربي لتعمل وبدقة على نسف تراث جلي وواضح وثابت، ولأن طه حسين قد استفرغ جهده في نسف الشعر الجاهلي فقد كان ديدنه في ذلك دراسة الشعر الإغريقي الهومري الذي قاربت طريقة روايته الشعر العربي الجاهلي.

ليس سهلا الحديث عن المشكلة الهومرية فالذين أرخوا للمسألة اجتهدوا في وضع أوجه التشابه بينها وبين الشعر الجاهلي مما يفتح مجالا واضحا للطعن في ثبوت الشعر الجاهلي والقول بانتحاله، لعل الدراسات التي قارنت بين النمطين أكدت هذا التشابه الذي لا يجب أن يُفضي إلى نسف الثابت بل إلى إثبات الوارد شفاها، إذ بين ناصر الدين الأسد قي كتابه حول مصادر الشعر الجاهلي ثلاثة نقاط مهمة في المسألة قائلا"[٣٤]:

أولا:

أن الشعر الجاهلي وشعر هومر هما أقدم شعر وصل إلينا من العرب والإغريق، وهما -على ذلك - ليسا أول شعر قالته هاتان الأمتان؛ بل لقد سبقتهما مراحل تطور فيها الشعر حتى استوى في هذه الصورة التي وصلت إلينا. غير أن هذا الشعر المبكر عند العرب واليونان معًا قد ضاع ولم يحفظ لنا منه شيء قائم بنفسه منفصل عن غيره. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نعرف وجود هذه المراحل السابقة من أمرين، أولهما: أن هذه الصور الشعرية التي وصلت إلينا صور فنية كاملة، متسقة، تامة التكوين، سوية البناء، ثابتة الأسس، حتى لقد أصبحت، بعد، نماذج فنية تحاكى وتحتذى ويتخذ منها عمود للشعر يحرص على التزامه شعراء العصور التالية في البيئات المتعددة التي صارت أزهى حضارة وأرقى ثقافة وأغزر معرفة. وليس يصح في الأفهام أن تنبت هذه الصورة الكاملة السوية من العدم، أو تقوم من الفراغ، أو تولد فجأة يافعة تامة التكوين. وثانيهما: أن في كلا الشعرين إشارات واضحة حينًا ومبهمة أحيانًا إلى شعراء سابقين لا نكاد نعرف عنهم شيئًا

ثانيا:

الشبه كبير بين الشعرين العربي الجاهلي والهومري في الصفات العامة للتعبير الشعري، فهما يتسمان بالنضارة والغضارة والبساطة، وبالفتنة التي نعزوها إلى "طفولة العالم" عند اليونان، و"سذاجة البداوة" عند العرب. ومع ذلك فما أشبه الشعر الجاهلي العربي بالشعر الهومري الذي "تعالى عن خشونة الشكل، وتجنب الصراع الناشب بين المعنى واللفظ، وارتفع عن الحوشي المبتذل من أساليب القول، واستطاع أن يحتفظ بمستواه الرفيع حفظًا متزنًا

ثالثا:

اختلف العلماء من دارسي الأدب في تدوين هذين الشعرين:الجاهلي العربي والهومري الإغريقي. فذهب فريق منهم إلى أنهما لم يكتبا منذ أن نُظما، بل بقيا محفوظين في صدور الرجال ترويهما الأجيال المتعاقبة وينشدهما الأفراد في المجالس والمحافل قرونًا طوالًا قاربت الثلاثة عند العرب وأربت على ذلك عند الإغريق. وذهب فريق آخر منهم إلى أن هذا الشعر قد كتب منذ أن قاله شعراء العرب في الجاهلية وهومر عند اليونان.

رابعا:

الشعران الجاهلي العربي والهومري مصدران تاريخيان من مصادر الحياة الجاهلية عند هاتين الأمتين؛ بل ربما كانا -حتى الآن - المصدرين الأساسيين اللذين يعتمد الدارس عليهما في فهم هذه الحياة -في كثير من جوانبها - فهمًا متصلًا متسقًا. وجل الأخبار التاريخية والأدبية التي نقلها الرواة إنما كانت تدور حول هذا الشعر: تفسره وتشرح ما يتضمنه من حوادث، وتترجم لمن يشير إليه من أشخاص. وقد لجأ القدامى أنفسهم إلى الشعر العربي الجاهلي يستنطقونه ويستنبطون منه توضيح بعض جوانب الحياة في الجاهلية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما فعله ابن قتيبة في كتابه "الميسر والقداح"، وما فعله أبو طالب المفضل بن سلمة في كتابه "الملاهي وأسماؤها". وأما الشعر الهومري فهو أيضًا سجل يعرض صورة واضحة نابضة بالحياة للحضارة الآرية، ولقد كادت فترة طويلة من الحياة الهيلينية المبكرة تكون لولاه نسيًا منسيًّا، ولكنها الآن بفضله تبدو متصلة بالعصر الهيليني التالي في نسف متدرج مستمر.

رغم هذه النتائج إلا أن الشعر الجاهلي ظل يتسم بمزايا خاصة لم يتسم بها شعر آخر، وتظل الرواية الشفوية شاهدة على مدة زمنية معتبرة امتدت من العصر الجاهلي قبل الإسلام إلى عصر التدوين بعد الإسلام، تشهد لهما آثار الاعتبار والاهتمام، فإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصف الشعر الجاهلي بقوله : "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه" فقد وصف أوجست شبرنجر الرواية بقوله: "علم الرواية الشفوية خاصية اختص بها الإسلام, بيد أن القليلين جدًّا من المستشرقين قدَّروها حق قدرها, وفهموها كما ينبغي" [٢].

إنّ تقصير بعض أصحاب الدراسات الاستشراقية في تقدير واحترام ظاهرة الرواية الشفوية خصوصا، فوّتت عليهم فهم قضايا الأدب العربي عموما، كقضية الشعر الجاهلي، المحنة الحقيقية للعقل العربي الحديث.

ثمّ إن الأهمية التي تكتسيها الرواية تتعدى الجانب النظري في نقل التراث إلى جانب المصداقية المتعلقة بهذا التراث، وهي المربط الذي يجعل أخبار العرب وتراثهم على المحك بين القبول أو الرفض، لقد خضعت الرواية الشفوية لتحاليل أدبية مختلفة، والاعتماد عليها في النقل سيكون عند البعض حتما عامل طعن في صحة الأخبار،

لولا أن استيثاق الطرق أثبت تميزا في العقلية العربية التي دفعت أقلام المستشرقين إلى تدوين عبارات تتهم الشعر الجاهلي بالانتحال بسبب الرواية الشفوية، وهي ذاتها أجبرتهم في ما بعد على اعتبارها قضية فكرية شاغلة، تتعدى الظاهرة إلى العلم كما ذكر أوجست سابقا.

لكن المتتبع للأخبار والآثار الأدبية سيجد مدونات واسعة من النقل الشفوي، لم تقتصر على الشعر فقط، بل الأمثال أيضا والتي شغلت حيزا وافرا في المصنفات، ولعلّ العلماء الذين اهتموا برواية الشعر هو ذاتهم الذين جمعوا هذه الأمثال، وعلى سبيل المثال لا الحصر تحفظ المصادر الأدبية أسماء كثيرة للأعلام مع مؤلفاتهم في هذا الشأن، كأمثال المفضل الضبي "ت180هـ"، وأمثال أبي فيد السدوسي "ت198هـ"، وأمثال أبي القاسم بن سلام "ت224هـ"، وأمثال أبي عكرمة الضبي "ت250هـ"، والزاهر لابن الأنباري "ت328هـ"، وجمهرة الأمثال للعسكري "ت395هـ"، وأمثال الطالقاني "ت421هـ"، وأمثال الميكالي "ت436هـ، وأمثال أبي عبيد للبكري "ت487هـ"، ومجمع الأمثال للميداني "510هـ"، والمستقصي للزمخشري "ت538هـ"، وتمثال الأمثال للعبدري "ت837هـ".

هذه المنقولات السابقة والمذكورة على سبيل المثال لا الحصر كانت مما تمكّن نشرها وطبعها وهي في متناول الباحثين، ومع ذلك بعض الدراسات النقدية تشير إلى أن كمًا هائلا إلى جانب هذا لا يزال في حكم المفقود أو الغير منشور يربو عددها عن الأربعين مصنفاً"□، وجميعها في باب الأمثال التي كانت الرواية الشفوية مصدر وصولها وتوثيقها.

الرواية الشفوية وحفظ التراث العربي الجاهلي:

الحق أن الرواية الشفوية كانت بالنسبة للعرب خيارا لا اختيارا على سبيل التجربة، إذ لم تكن لهم وسيلة حفظ أخرى، لكنها أصبحت مع مرور الوقت الوسيلة الأنجع حتى في عصور التدوين وما بعدها، فرغم اعتماد وظهور الكتابة كإحدى وسائل حفظ التراث، إلا أنَّ مكانة الرواية الشفوية لم تُمحَ من الذاكرة العربية عبر العصور، والحديث عنها في العصر الجاهلي هو حديث عن الشعراء بوجه أو بآخر، فقد اشتهر عندهم أن الشعر يحفظه الشاعر ويرويه الشاعر أيضا، لذا فرض هذا الاشتهار والأهمية أن يكون الحديث عن الرواة في العصر الجاهلي هو حديث عن الطبقات التي حدّدها المتخصصون للرواية، على النحو التالي:

الطبقة الأولى: وهم الشعراء الرواة المحترفون أو الفحول الذين تجمع بينهم حرفة الفن والموهبة الشعرية، تسلسلوا في مراتب الشعر حتى أصبحوا بمجموعهم مدرسة شعرية"□، وهؤلاء يلزمون شاعرا بعينه يروون عنه، حتى يصلون إلى مرتبة الفن والإبداع والأداء، تبدأ هذه المدرسة بأوس ين حجر□□، رغم أنَّ ابن سلام الجمحي يدرجه في الطبقة الثانية، وتنتهي بكثير□□، وتثمينا للتسلسل المذكور فإن المصادر تحفظ أن زهيرا كان راويةً لأوس وتلميذا له" ير□ وحين وصل زهير إلى مرتبة الإتقان الشعري أصبح الحطيئة راوية له" تر□، ويفبد صاحب الحيوان في ترجمته لهدبة أنه كان راوية للحطيئة" ير□

إن الميزات البيانية والفنية التي اشتهرت بها هذه المدرسة عديدة جدا، أشهرها التقارب الفني في صنعة الشعر، لكن سير الموضوع يفرض تحديد خاصية فريدة تتماشى مع قضية الرواية الشفوية وهي المحاولات المتواصلة لتنقيح الشعر والتأني في نظمه قبل أن يُروى عنه، دفعت هذه الخاصية بالأصمعي إلى وصف الحطيئة

وزهير وأشباههما ب:" عبيد الشعر، لأنهم نقّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين"[سم]، ونعتقد أنّ هذا التأني سيرتبط فيما بعد بصحة الرواية ودقتها، وسيدفع الباحثين المتأخرين إلى وصف هذا المنحى "بمذهب الصنعة"[شم].

لا تختص هذه المدرسة بالانتماء والتقارب الفني فحسب، بل قد يجتمع الشعراء في النسب والرحم أيضا، فأوس كان زوج أم زهير" [ل]، كما تحفظ الروايات أن الأعشى[] كان يروي شعر خاله[] المسيب بن عَلَس[بر]، وكذلك كان أبو ذؤيب الهذلي راوية لساعدة بن جؤية الهذلي"[بر]، وغيرهم كثير.

هاتان الخاصيتان: التقارب الفني والتقارب النَسبي ليسا كلُّ ما يتميز به شعراء هذه الطبقة من جهة الرواية، بل قد يجتمعون في غير هذا كالسلوكيات الاجتماعية المختلفة أو الميولات، وتكون هذه الرابطة كافية للرواية والنقل بينهم كالشعراء الصعاليك.

الطبقة الثانية: تنتقل الرواية الشفوية بموجب هذه الطبقة إلى مرحلة أخرى أكثر عمقا، و "هم الشعراء الذين لم يختصوا برواية شعر شاعر بذاته يتتلمذون له، وإنما يروون لشعراء كثيرين يتتلمذون لهم جميعًا، حتى يستقيم عودهم، ويشقوا طريقهم الشعري الذي يتفردون به ويتميزون، وأكثرهم من شعراء القرن الأول الهجري، وهم جميعًا قد رووا الشعر الجاهلي وحفظوه وتمثلوا به، بل لقد نقدوه وحكموا عليه وفاضلوا بين الشعراء الجاهليين. وقد اعتمد الرواة من علماء القرن الثاني أحكام هؤلاء الشعراء الرواة وروايتهم للشعر الجاهلي وأخذوا عنهم" [بر بر]

وهذه الطبقة هي التي تؤكد اتصال الرواية الشفوية للشعر الجاهلي من عصرها الجاهلي إلى علماء القرن الثاني، ومن رواتها الشعراء الكميت بن زيد:[تر بر]، الذي مكّنته دقة رواياته من تخصص له المصادر التاريخية مقولة حصرية: "ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت فمن صحح نسبه الكميت صح ومن طعن فيه وهن" [بر بر] ومنهم رؤبة بن العجاج[سم بر]، وذو الرمة[شم بر] وغيرهم كثير.

الطبقة الثالثة: هي طبقة الحفظة: من جهود القبائل المنفردة في حفظ تراثهم الأدبي، ولا زالت المصادر تحفظ أن القبيلة كانت تحتفي بشعرائها في المحافل والمناسبات، فالشاعر هو الممثل الشرعي للقبيلة وعليه يجب حفظ شعره ونقله بين الأجيال.

تحسن الإشارة أن هذه الطبقات ليست هي الشعر كله، لكنها بعض منه فحسب، ذُكرت هنا في محل التدليل على أنواع الرواة، "فعنهم كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه. ولهذا لم يمكن التحرز عن السقط والتحريف، وإن لاحظنا أن ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحد على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث" [ل بر]

الرواية الشفوية أداة لحفظ التراث العربي الإسلامي:

ستستمر الرواية الشفوية عاملا ومصدرا هاما بعد انتشار الإسلام، وتعدّت كونها مقصورة على نقل وحفظ الشعر فحسب، بل تعدّت إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فكلاهما كان يُحفظُ ويُنقلُ شفاها، حتى إذا وصلنا إلى العهد الأموي نجد القوم يجتهدون في التثبت من الروايات دون النظر إلى المسافات،

فالقفطي في تاريخ النحاة يؤكد أنّ الرّجلان من بني أمية يختلفان في البيت من الشعر، فيبردان بريدا إلى قتادة بن دعامة، فيسألانه عن ذلك"□ بر والمعروف أن قتادة□ بر كان بالعراق أنذاك.

لم يختلف بنو العباس عن سابقيهم في الاهتمام بالأخبار العربية، إذ قدمّ أعلامهم أمثالا تُحتذى في هذا الشأن، فقد اشتهر أنَّ حمادا الراوية□ تر وخلف الأحمر□ تر والمفضل الضبي بر تر وغيرهم كانوا يرحلون إلى القبائل والأعراب في البادية وإلى نجد أحيانًا؛ ليأخذوا الأشعار والأخبار من ينابيعها الصحيحة، وكانت هذه الطبقة هي الانطلاقة في نشوء مدرستين عريقتين هما مدرسة الكوفة والبصرة، وبهذه الكيفية كانت الرواية الشفوية عاملا أساسا في انتقال المعرفة الأدبية والإسلامية العربية إلى الأجيال المتعاقبة.

أهمية الرواية الشفوية في الكتابات التاريخية:

الحق أن الرواية الشفوية لم تتميز في أحد المجالين عن الآخر، فكلاهما تُعدُّ مصدرا له، وهما عالة عليها، والنظر إلى مسار الأحداث التاريخية سيكشف أنّ التأسيس للرواية الشفوية ينطلق أساسا من تاريخ الأدب العربي، ونصادف في قراءاتنا للمصادر التاريخية هذا التقريب بوضوح، في ثنايا الإعلان عن انتهاء صلاحية الرواية الشفوية في ظل ظهور الكتابة، ولا تزال كتابات مرجوليوت وطه حسين تحمل ذلك الصراع والتجني على الشعر الجاهلي بتهمة الانتحال، والسبب هو الرواية الشفوية، التي يجنح الدكتور العماري في كتابه حولها إلى الحديث عن القوالب الصياغية كأهم ما ترتكز عليه، وهذه الدعوى هي الطريق إلى ربط الرواية بالعمومية ومجهولية القائل أو اختلاطه" تر تر.

لكن المصادر التاريخية ذاتها تعتمد على المصادر الأدبية في الانتصار للرواية الشفوية التي كانت سببا في الوضع والانتحال، فبروكلمن أشار إلى موضوع التدوين وعدم وجوده في الجاهلية، وأثره في فقدانه على انتحال الشعر، ثم قال: "ومن ثم يعد خطأ من مرجليوث وطه حسين أن أنكرا استعمال الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكلية، ورتبا على ذلك ما ذهبا إليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم، ومنحولة لأسمائهم .ولكن بديهيًا أن الكتابة لم تقض قضاء كليًّا على الرواية الشفوية. فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه، يروي عنه أشعاره، وينشرها بين الناس، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده، وزاد عليها من عنده" بر تر.

تحفظ لنا المصادر التاريخية ككتب السير والمغازي والشمائل أخبارا عن العرب الجاهليين والأنبياء السابقين، ويجدون في الشعر الجاهلي شاهدا قائما على أخبار العرب، وبالرجوع إلى أوائل كتب السير والمغازي سنجد كتاب ابن هشام في الصدارة، عمل فيه مؤرخا وجامعا لأخبار النبي صلى الله عليه وسلم، ولتاريخ العرب قبل الإسلام، وكان مصدره الأول هو الرواية الشفوية"سه تر

لسنا في هذا المجال بصدد الإقلال من قيمة الكتابة، فأهميتها كمصدر من مصادر التوثيق والنقل ثابتة، لكن ظهورها المتأخر فرض تقديم الأسبق، إذ لم تكن لدى العرب وسيلة أخرى آنذاك غير الرواية، لكن تعاقب الأزمنة والعصور سيفرض فيما بعد تعاضدا بينهما في الأخبار والأحوال، ولازلنا نقرأ في كتب التراجم والطبقات أنّ الذهبي في كتاباته التاريخية «استطاع استيعاب عصور التاريخ الإسلامي من أول ظهوره حتى زمانه

الذي كتب فيه مؤلفاته، وهي فترة تزيد على السبعة قرون، فألف في كل هذه العصور بعد أن درسها دراسة عميقة قامت على دعامتين رئيستين هما: الرواية الشفوية والكتب"[شم تر]، كما نصادف في كتب الحديث أنّ العناية قد اتجهت إلى جمع الأحاديث وتدوينها عن طريق الرواية الشفوية التي اعتمد عليها الحديث فترة من الزمن، ثم كان أصحاب الكتب يعتمدون أيضا على الرواية الشفوية ويهتمون بالنقل عن حفاظ الحديث ونقلته بعد التدوين وقد استدعى ذلك البحث عن الوسائل التي تضمن سلامة وصول الأحاديث إليهم" [لم تر]

خاتمة: ختاما لا يعمد هذا المقال إلى تفنيد الادعاءات التي تتهم الرواية الشفوية بتحريف بعض الأخبار، أو الوضع، فهذا من الثابت الذي لا يُنكر، لكنها كانت الأساس والمصدر الأول في نقل المعارف الأدبية والتاريخية والحديثية، والإسلامية، وكانت تسري في مواطن عدة من صفحات هذا التاريخ وهذا التراث مع الكتابة جنبا إلى جنب، وكلاهما أسهم بشكله وطريقته في خدمة هذا التراث.

الهوامش:

[1] ـــ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـــ، 2000م، ص 21

[2] ـ المرجع نفسه، ص 54

[3] ـ فضل بن عمار العماري، الشعر والغناء في ضوء نظرية الرواية الشفوية، مكتبة التوبة، الرياض، ص 7

[4] ـ ابن خلدون عبد الرحمان، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ، 1988م، ص 13

[5] ـ بن سلاّم محمد الجمحي، طبقات فحول الشعراء، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج1، ص 46

[6] ـ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط7، 1988، ص ص 289 ، 292

[7] ـ عفيف عبد الرحمان، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديما وحديثا، دار الفكر، ط1، 1987م، ص 44

[8] ـ عفيف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 23

[9] ـ ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص 222

[10] ـ توفي سنة 620هـ، هو أوس بن حجر بن عتاب بن عبد الله بن عدى بن نمير بن أسيد شاعر تميم من شعراء الجاهلية وفحولها يجيد في شعره/ الجمحي محمد ين سلاّم، طبقات فحول الشعراء، تحقيق، محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، ج1، ص 6.

[11] ـ (000 - 105 هـ = 000 - 723 م) كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر: شاعر، متيم مشهور. من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك بن مروان، فازدري منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، فاختص به وبيني مروان، يعظمونه ويكرمونه. وكان مفرط القصر دميما، في نفسه شمم وترفع. يقال له " ابن أبي جمعة " و " كثير عزة " و " الملحي " نسبة إلى بني مليح، وهم قبيلته، قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحدا. وفي المؤرخين من يذكر أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، قيل: كان يرى أنه " يونس ابن متى " أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة. وكان عفيفا في حبه قيل له: هل نلت من عزة شيئا طول مدتك؟ فقال: لا والله، إنما كنت إذا اشتد بي الأمر أخذت يدها فإذا وضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة. توفي بالمدينة. له " ديوان شعر - ط " وللزبير ابن بكار " أخبار كثير "/ الزكلي، خير الدين، الاعلام، دار العلم للملايين، ط15، ج5، ص 219

[12] ـ الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسام، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج1، ص 137

[13] ـ الجمحي، المصدر السابق، ج1، ص 104

[14] ـ الجاحظ، عثمان بن بحر، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، ج7، ص 483

[15] ـ الديتوري، المصدر السابق، ج1، ص 78

[16] ـ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط12، ص 25

[17] ـ الأسد ناصر الدين، المرجع السابق، ص 222

[18] ـ الأعشى الكبير أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة وهو حصن بن عكابة بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل ويلقب الصناجة وأمه بنت علس أخت المسيب بن علي من بني خماعة ثم من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ولد الأعشى بقرية باليمامة يقال لها منفوحة وفيها داره وبها قبره. ويقال إنه كان نصرانياً وهو أول من سأل بشعره ووفد إلى مكة يريد النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته التي ألولها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا/ المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تصحيح فؤاد كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1402هـ، 1982م، ج1، ص 401

[19] ـ الدينوري، المصدر السابق، ج1، ص 173

[20] ـ المسيب بن علس بن مالك بن عمرو ابن قمامة، من ربيعة بن نزار: شاعر جاهلي. كان أحد المقلّين المفضَّلين في الجاهلية. وهو خال الأعشى ميمون، وكان الأعشى راويته.وقيل: اسمه زهير، وكنيته أبو فضة. له (ديوان شعر) شرحه الآمدي/ الزركلي، خير الدين، المصدر السابق، ج7، ص 225

[21] ـ الأسد ناصر الدين، المرجع السابق، ص 222

[22] ـ المرجع نفسه، ص 225

[23] ـ الْكُمَيْت بن زيد الْأَسدي الشَّاعِر الْكُوفِي شَاعِر زَمَانه يُقَال إِن شعره بلغ أَكثر من خَمْسَة آلاف بَيت روى عَن الفرزدق وَأبي جَعْفَر الباقر)وروى عنه والبة بن الْحباب وَغَيره ووفد على الخليفتين يزِيد وَهِشَام قَالَ أَبُو عُبَيْدَة لَو لم يكن لبني أَسد منقبة غير الْكُمَيْت لكفاهم، ولد سنة سِتِّينَ وَتُوفِّي سنة سِتّ وَعشْرين وَمِائَة/ الصفدي، خليل الدين بن أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث بيروت، 1420هـ، 2000م، ج24، ص 276.

[24] ـ ابن عساكر أبو القاسم ين علي، تاريخ دمشق،تحقيق، عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1415هـ، 1995م، ج50، ص 243 / الذهبي، شمس الدين بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، ج3، ص 486

[25] ـ (000 - 145 هـ = 000 - 762 م) رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الجحّاف، أو أبو محمد: راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية، وقد أسنّ. وله (ديوان رجز - ط) وفي الوفيات: لما مات رؤبة قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة/ الزركلي، المصدر السابق، ج3، ص 34

[26] ـ (77 - 117 هـ = 696 - 735 م)، غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، ذو الرمة: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عَمْرو بن العلاء: فتح الشعر بإمرئ القيس وختم بذي الرمة. وكان شديد القصر، دميما، يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا/ المصدر نفسه، ج5، ص 124

[27] ـ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط4، 1422هـ، 2001م، ج 17، ص 267

[28] ـ القفطي، جمال الدين أبو الحسن، إنباء الرواة أنباء النحاة، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ، ج3، ص 35

[29] ـ أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث ابن سدوس، السدوسي البصري، كان تابعيا وعالما كبيرا، وكان قتادة أجمع الناس وكانت ولادته سنة 60هـ. وتوفي سنة 117هـ بواسط وقيل ثماني عشرة، رضي الله عنه / ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المصدر السابق، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج4، ص 85

[30] ـ (95 - 155 هـ = 714 - 772 م) حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم: أول من لقب بالراوية. وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها. أصله من الديلم، ومولده في الكوفة. جال في البادية ورحل إلى الشام. وتقدم عند بني أمية، فكانوا يستزيرونه ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته. وهو الّذي جمع السبع الطوال (المعلقات)/ الزركلي، المصدر السابق، ج2، ص 271

[31] ـ خلف الْأَحْمَر الشَّاعِر صَاحب البراعة فِي الْآدَاب يكنى أَبَا مُحرز مولى بِلَال بن أبي بردة حمل عَنهُ ديوانه أَبُو نواس وَتُوفِّي فِي حُدُود التِّسْعِينَ وَمِائَة وَكَانَ رِوَايَة ثِقَة علاّمة يسْلك الأصمعيّ طَرِيقه ويحذو حذوه حَتَّى قيل هُوَ معلّم الْأَصْمَعِي، وَلم يكن فِيهِ مَا يعاب بِهِ إِلَّا أَنه كَانَ يعْمل القصيدة يسْلك فِيهَا أَلْفَاظ الْعَرَب القدماء وينحلها أَعْيَان الشُّعَرَاء كَأبي دَاوُد والإيادي وتأبَّط شرا وعيرهم/ الصفدي، المصدر السابق، ج13، ص 219

[32] ـ أبو عبد الرحمن الضبي الراوية الأديب النحوي اللغوي: كان من أكابر علماء الكوفة، عالما بالأخبار والشعر والعربية، أخذ عنه أبو عبد الله ابن الأعرابي وأبو زيد الأنصاري وخلف الأحمر وغيرهم، وكان ثقة ثبتا. من تصانيفه: كتاب الاختيارات. كتاب معاني الشعر. كتاب الأمثال. كتاب الألفاظ. كتاب العروض. المفضليات وهي أشعار مختارة جمعها للمهدي/ الحموي ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ، 1993م، ج6، ص 2710

[33] ـ العماري، المرجع السابق، ص 8

[34] ـ المرجع نفسه،ج17، ص 267

[35] ـ محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، ط2، ص 40

[36] ـ الذهبي، سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ،1985م، ج1ـ ص 57

[37] ـ طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1410هـ، 1989م، ص 234